

الفصل الثالث:

منهج الإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة

المبحث الأول: الموضوعات.

المبحث الثاني: المواضيع.

المبحث الثالث: الترتيب.

المبحث الأول : الموضوعات

يحتاج عرض هذا المبحث إلى وقفة لتحديد قضايا الإعجاز التي تناولها العلماء في كتب دلائل النبوة، ومدى استيفائهم لكل قضايا الإعجاز التي تناولها العلماء في كتب الإعجاز البلاغي من عدمه.

ولقد أُلّف عدد من العلماء كتباً خاصة في موضوع الإعجاز البلاغي للقرآن، وكان منهم السابق لبعض علماء كتب دلائل النبوة، كالرمازي والخطابي، ومنهم علماء هم من أساس هذا البحث كالباقلاوي والقاضي عبدالجبار، ومنهم الأحق كعبدالقاهر الجرجاني. فهل عَرَضَ علماءنا في كتب دلائل النبوة لكل قضايا الإعجاز التي تناولها من أُلّف فيها كتباً خاصة؟

وبعد التتبع لما كتبه العلماء في كتب الإعجاز البلاغي، وجدت أن قضايا الإعجاز تنحصر في القضايا التالية:

١ — وجوه إعجاز القرآن.

٢ — التحدي بالإتيان بمثل القرآن:

أ — موقف العرب من بلاغة القرآن.

ب — أثر القرآن في سامعيه (الأثر النفسي).

ج — حكمة التحدي.

د — مراحل التحدي.

هـ — القدر المعجز للتحدي.

و — زمان العجز.

٣ — دعوى الإتيان بمثل القرآن:

أ — دواعي المعارضة.

ب — ألوان المقاومة التي واجه بها العرب القرآن.

ج — المعارضة المخفية.

د — المعارضة العلنية.

هـ — القول بالصرفة.

٤ — النفاضل بين الآيات في البلاغة.

٥ — النظم:

— وحدة القرآن الموضوعية.

هذه هي أهم قضايا الإعجاز التي تحدث عنها العلماء في كتب الإعجاز البلاغي، والملاحظ أن كثيراً من هذه القضايا يندرج تحتها من المسائل ما هو من جزئياتها. وعند النظر في ما سطره علماء كتب دلائل النبوة، نجد أنهم طرّقوا هذه القضايا والموضوعات كلها، باستثناء بعض المسائل التي سأشير إليها في موضعها إن شاء الله تعالى.

ففي القضية الأولى وهي "وجوه إعجاز القرآن" اختلفت آراء علماء كتب دلائل النبوة في تحديدها، فبعضهم جعله وجهاً واحداً وهو بديع نظم القرآن وعجيب تأليفه كالباقلاين (١)، ومنهم من زاد الإعجاز الغيبي كالجاحظ (٢)، والزيدي (٣)، ومنهم من حصرها في ثلاثة أوجه كالقاضي عبدالجبار (٤) والبيهقي (٥)، فالقاضي عبدالجبار ذكر الإعجاز البلاغي، والغيبي، وما في القرآن من التنبيه على دلائل العقول، واتفق معه البيهقي في الوجهين الأول والثاني، أما الثالث فقد ذكر البيهقي اشتمال القرآن على أخبار قصص الأولين. ومن العلماء من أوصلها إلى عدد كبير كما فعل الماوردي (٦)، فقد بيّن أن إعجاز القرآن يكون من عشرين وجهاً.

(١) ينظر: البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر وال نارنجات: ٢٣ — ٣١ .

(٢) ينظر: حجج النبوة: ٢٦٦ — ٢٦٩ .

(٣) ينظر: إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ١٢٣ — ١٣٧ .

(٤) ينظر: تثبيت دلائل النبوة: ٨٦ / ١ .

(٥) ينظر: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ١٦ / ١ — ١٧ .

(٦) ينظر: أعلام النبوة: ١٢٧ — ١٥٣ .

وليس فيما فعله علماء كتب دلائل النبوة من اختلاف في وجوه الإعجاز غرابة؛ إذ ((كل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له)) (١).

ولعل السبب في اختلاف آراء العلماء حول وجوه الإعجاز، راجع إلى صعوبة تحديدها، ومما يؤيد هذا قول السكاكي حينما تحدث عن الإعجاز البلاغي فقال: ((ولها — أعني البلاغة — طرفان: أعلى وأسفل، متباينان تبايناً لا يتراءى له ناراهما، وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر، متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة، وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه به في صدر الكتاب من أصوات الحيوانات، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حداً لإعجاز عجيب يُدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن: تُدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحظة. ومُدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا... نعم للبلاغة وجوه [ملتزمة] (٢) ربما تيسرت إمطة اللثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا)) (٣).

وقال أبو حيان: ((لم أسمع كلاماً ألصق بالقلب وأعلق بالنفس من فصل تكلم به بُنّدار بن الحسين الفارسي (٤)، وكان بحراً في العلم، وقد سُئل عن موضع الإعجاز من القرآن فقال: هذه مسألة فيها حيف على المفتي، وذلك أنه شبيهه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان؟ فليس للإنسان موضعٌ من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملته فقد حقيقته ودلت على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يُشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية: ٥ / ٤٢٩، تحقيق: د. علي ابن حسن بن ناصر، و د. عبدالعزيز بن إبراهيم العسكر، و د. حمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤١٤هـ.

(٢) جاء في الأصل [ملتزمة]، وأحسب أن الأقرب كونها [ملتزمة أو ملتمة] فالسياق يدل على هذا المعنى.

(٣) مفتاح العلوم: ٤١٥ — ٤١٦.

(٤) هو بُنّدار بن الحسين الشيرازي، شيخ الصوفية، له معرفة بالكلام والنظر والأصول، توفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة. ينظر: طبقات الصوفية: محمد بن الحسين الأزدي السلمي: ١ / ٣٤٩، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ، وسير أعلام النبلاء: ١٦ / ١٠٨ — ١٠٩.

آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وهدى لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده)) (١) . فهذان القولان يدلان على صعوبة تحديد وجه الإعجاز.

وأما القضية الثانية وهي **قضية التحدي بالإتيان بمثل القرآن**، فلم يتركها عالم واحد من علماء كتب دلائل النبوة إلا وقد أشار إليها (٢)، ولا عجب في أن تكون هذه القضية هي مثار اهتمام العلماء؛ لأنه إذا وقع التحدي وثبت العجز، فإن ذلك دليل قاطع على صحة النبوة، وأن القرآن الكريم كتاب الله المنزل على رسوله ﷺ، وهذا ما يسعى إليه هؤلاء العلماء في كتبهم.

هذا وقد أشرت في بداية هذا المبحث إلى عدد من المسائل التي تدخل ضمن قضية التحدي، وقد تحدث العلماء عن أغلبها في كتب دلائل النبوة، كأثر القرآن في سامعيه (٣)، وحكمة التحدي (٤)، ومراحل التحدي (٥)، والقدر المعجز للتحدي (٦)،

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ١٠٠ .

(٢) ينظر : حجج النبوة : ٢٥١ ، ٢٧٧ ، وأعلام رسول الله : ١٤٢ ، والبيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر وال نارنجات : ٢٧ - ٢٨ ، ٣١ - ٣٢ ، وتثبيت دلائل النبوة : ١ / ٨٥ ، وإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٢١ - ٣٢ ، ودلائل النبوة للأصبهاني : ١ / ٢٢٩ - ٢٣٠ ، وأعلام النبوة : ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٥٣ - ١٥٥ ، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١١ - ١٦ .

(٣) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٢ ، وإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٢٨ - ٣١ ، ودلائل النبوة للأصبهاني : ١ / ٢٣٠ - ٢٦٤ .

(٤) ينظر : البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر وال نارنجات : ٣١ - ٣٢ .

(٥) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٢ ، والبيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر وال نارنجات : ٢٧ - ٢٨ ، وإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٢٢ - ٢٥ ، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١١ - ١٢ .

(٦) ينظر : حجج النبوة : ٢٢٩ ، ٢٧٤ ، وأعلام رسول الله : ١٤٣ ، والبيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر وال نارنجات : ٢٥ ، وإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤٠ ، وأعلام النبوة : ١٣٢ .

وزمان العجز (١)، وقد أغفل العلماء موقف العرب من بلاغة القرآن وأسلوبه، فلقد كان موقفهم موقف المبهور المتحير، كما اتجهوا إلى التشكيك بالقرآن.

وأما القضية الثالثة وهي **دعوى الإتيان بمثل القرآن**، فلقد تحدث الكثير من علماء كتب دلائل النبوة عنها (٢)، كما أشاروا إلى جميع المسائل التي أوردتها العلماء في كتب الإعجاز البلاغي، فالجاحظ أشار إلى دواعي المعارضة (٣)، وألوان المقاومة التي واجه بها العرب القرآن (٤)، والزبيدي والماوردي والبيهقي تحدثوا عن المعارضة المخفية (٥)، كما تحدث الجاحظ وابن قتيبة والزبيدي والماوردي والبيهقي عن المعارضة المعلنة (٦)، أما القول بالصرفة فقد انفرد الزبيدي والماوردي بالحديث عنها (٧).

وأما القضية الرابعة وهي **التفاضل بين الآيات في البلاغة**، فلم يُشر إليها سوى الزبيدي والماوردي (٨).

-
- (١) ينظر: البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر وال نارنجات: ٣١ .
- (٢) ينظر: حجج النبوة: ٢٧٧ — ٢٧٨ ، وأعلام رسول الله: ١٤٣ ، و البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر وال نارنجات: ٢٩ — ٣٠ ، وإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ٣٣ — ٨٥ ، وأعلام النبوة: ١٤٩ — ١٥٢ ، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ١ / ١٢ — ١٥ .
- (٣) ينظر: حجج النبوة: ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ .
- (٤) ينظر: المصدر السابق: ٢٧٤ — ٢٧٦ .
- (٥) ينظر: إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ٣٣ ، ٣٦ ، ٥٢ ، وأعلام النبوة: ١٥٠ — ١٥١ ، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ١ / ١٢ .
- (٦) ينظر: حجج النبوة: ٢٧٤ — ٢٧٥ ، وأعلام رسول الله: ١٤٣ ، وإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ٣٧ — ٤٩ ، وأعلام النبوة: ١٤٩ — ١٥٢ ، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ١ / ١٢ — ١٣ .
- (٧) ينظر: إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ٩٣ — ٩٦ ، وأعلام النبوة: ١٥٢ — ١٥٣ .
- (٨) ينظر: إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ٩٨ — ١٠٠ ، وأعلام النبوة: ١٢٩ — ١٣٠ .

وأما القضية الأخيرة وهي **النظم**، فقد أشار إليها بعض العلماء في كتبهم مجرد إشارات يسيرة (١)، وتحدث الزيدي والماوردي عنها بشيء من التفصيل (٢). ولم يتحدث العلماء في كتب دلائل النبوة عن وحدة القرآن الموضوعية، فهي مما يتعلق بقضية النظم، وقد أشار إليها العلماء قديماً (٣).

ومن خلال ما سبق يتبين أن العلماء في كتب دلائل النبوة قد أسهموا في تناول قضايا الإعجاز، ولا عجب في ذلك؛ إذ كثير من هؤلاء العلماء أُلّف في إعجاز القرآن كتاباً خاصاً، كالجاحظ (٤)، والباقلاني، والقاضي عبدالجبار.

وتجدر الإشارة إلى تفاوت علماء كتب دلائل النبوة في تناولهم لقضايا الإعجاز، فمنهم من اكتفى بذكر قضية واحدة، كالأصبهاني عندما تحدث عن التحدي وأثر القرآن في سامعيه، ومنهم من تناول أغلب القضايا، وهذا حال كثير منهم، ومنهم من تناول قضايا الإعجاز كلها، كالزيدي والماوردي اللذين خصّصا جزءاً كبيراً من كتابيهما للحديث عن معجزة القرآن الكريم، وأنه أكبر دليل على صحة نبوة النبي ﷺ. والحق أن الزيدي والماوردي قد توسعا في ذكر قضايا الإعجاز، بينما لم يأت بقية العلماء بحديث متعلق بتلك القضايا إلا في مواضع يسيرة، وذلك مقارنة بتوسع الزيدي والماوردي.

ومن الملاحظ أن العلماء في كتب دلائل النبوة لم يتناولوا موقف العرب من بلاغة القرآن الكريم، كما لم يُشيروا إلى وحدة القرآن الموضوعية، وأرى أنهم معذورون في الثانية

(١) ينظر: حجج النبوة: ٢٧٣ - ٢٧٤، وأعلام رسول الله: ١٤٣، والبيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والتاريجات: ٢٣ - ٣٠، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ١ / ١١، ١٥.

(٢) ينظر: إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ٨٦ - ٩٣، وأعلام النبوة: ١٢٧ - ١٢٨.

(٣) ينظر: بيان إعجاز القرآن، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٥١، وإعجاز القرآن للباقلاني: ١٩٠ - ١٩١.

(٤) أُلّف الجاحظ كتاباً في نظم القرآن، لكنه فقد ولم يصلنا.

الموضوعات

دون الأولى؛ وذلك لأن الحديث عن موقف العرب من بلاغة القرآن متصل بأثر القرآن في سامعيه، وقد أشار إلى هذا الأثر ابن قتيبة والزيدي، دون تطرُّق إلى ما حصل للعرب آنذاك. أما كون علماء كتب دلائل النبوة لم يتطرقوا إلى وحدة القرآن الموضوعية؛ فلعل ذلك راجع إلى كون موضوع هذه الكتب هو الحديث عن المعجزات والدلائل التي تدل على صدق نبوة محمد ﷺ، وبالتالي لا لوم على هؤلاء العلماء عندما يُغفلون مثل هذه المسألة.

المبحث الثاني : المواضع

أيد الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ بمعجزات كثيرة، فشددت كثيراً من الناس وهرتهم، فشرع العلماء بتصنيف المصنفات المطولة والمختصرة في دلائل نبوته ﷺ، يقول القاضي عياض: ((واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ دلائل نبوته وبراهين صدقه، من هذين النوعين معاً (١)، وهو أكثر الرسل معجزةً، وأبهرهم آية، وأظهرهم برهاناً — كما سنبينه — وهي في كثرتها لا يُحيط بها ضبط؛ فإن واحداً منها وهو القرآن لا يُحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين ولا أكثر؛ لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورة منه فعجز عنها)) (٢).

وفي هذا المبحث سأسعى إلى بيان المواضع التي تحدث عنها العلماء في كتب دلائل النبوة عن الإعجاز البلاغي، كما سأبين ما يتفقون فيه من تلك المواضع، وما يقع بينهم من اختلاف.

هذا وقد قسم علماء كتب دلائل النبوة كتبهم إلى فقرات يسهل الرجوع إليها، وقد كان هذا من العلامات البارزة في كتبهم، وقد يكون بعض التقسيم من صنع المحققين، ولكن جهدهم ما كان ليظهر بهذا الحسن لولا أن علماء كتب دلائل النبوة أجادوا في الأصل تقسيم كتبهم. ويظهر هذا التقسيم واضحاً عند النظر في العناوين التي وضعوها لكثير من أقسام كتبهم، مثل: باب، وفصل، ونحوهما.

وعند التأمل في المواضع التي تحدث عنها العلماء في كتب دلائل النبوة عن الإعجاز البلاغي، استطعت أن أصنف تلك المواضع إلى أربعة أقسام هي:

(١) يقصد بالنوعين: ما يقدر عليه البشر، وما هو خارج عن قدرتهم، وهذا ما يُفهم من سابق كلامه.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١ / ١٧١ .

١ - العنوان الرئيس أو الفرعي:

وهنا سأبين تحت أي عنوان رئيس أو فرعي تحدث علماء كتب دلائل النبوة عن قضايا الإعجاز.

تشابهت العناوين التي وضعها العلماء لقضية الإعجاز البلاغي، فمن الواضح أن تُصَب تلك العناوين في معنى واحد وهو الدلائل والمعجزات والعلامات، فموضوع كتبهم يدخل تحت هذه المعاني. أما العناوين الفرعية فقد تباينت تبايناً كبيراً:

فالجاحظ قد سمى رسالته " حجج النبوة " لكنه عندما شرع في كتابه وأتى على تلك الحجج، أطلق عليها عنواناً آخر فجعله (فصل منه في ذكر دلائل النبي عليه الصلاة والسلام)، ولم يجعل الجاحظ عنواناً فرعياً عندما تحدث عن الإعجاز البلاغي، بل جاء حديثه عنه في وسط ذكره لآل النبي ﷺ (١)؛ ولعل هذا راجع إلى كثرة استطرادات الجاحظ التي عُرفت عنه، فهو كثيراً ما يخرج من موضوع إلى آخر، حتى يُحس القارئ بالابتعاد عن الموضوع.

أما ابن قتيبة فقد جاء عنوانه الرئيس مطابقاً لعنوان الكتاب، فجعل لدلائل النبوة عنواناً سماه " أعلامه ﷺ "، أما الإعجاز البلاغي فقد تحدث عنه تحت اسم " القرآن " (٢).
وأما الباقلاني فقد جاء حديثه عن الإعجاز البلاغي في غير موضعه، فقد تحدث عنه في باب (القول في ذكر البيان عن حقيقة المعجز الدال على صدق الرسل عليهم السلام، ومعنى وصفه بأنه معجز) (٣) مع أنه عقد باباً كاملاً في (ذكر ما يختص به النبي ﷺ مما يقتضي إظهار المعجز على يده) (٤) ولم يُشر إلى معجزة القرآن في هذا الباب، ولعل الباقلاني فضّل الحديث عن الإعجاز البلاغي في (بيان حقيقة المعجز) خاصة وأنه أشار إلى التحدي والمعارضة فقط، وهاتان القضيتان مما يتصل بحقيقة المعجز، فرأى عدم إعادة ذكر الإعجاز البلاغي في الباب الذي تحدث فيه عن الدلائل. وليس بغريب أن يعمد الباقلاني

(١) ينظر : حجج النبوة : ٢٦٩ - ٢٧٣ .

(٢) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) ينظر : البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والمارجحات : ٢٣ - ٣٦ .

(٤) ينظر : المصدر السابق : ٣٧ - ٤٩ .

إلى هذه الطريقة؛ فهو كثيراً ما يعتمد على الطريقة التربوية التي ((تكوّن ملكات التفكير والنظر عند القارئ، وتهديه إلى طريقة استخراج المعرفة بنفسه، بدلاً من أن يظل تلميذاً يعتاد استيعاب الحقائق التي تُقدّم له فحسب، دون أن يعرف كيف يسير أغوار الكلام ليستخرج حقائقه وودائعها)) (١).

وأما القاضي عبدالجبار فلم يضع عنواناً للإعجاز البلاغي ولا لغيره من القضايا، وعندما يريد ((تفصيل كلامه عن دلائل النبوة، لا يلتزم القاضي البقاء في نطاق الحوادث أو الدلائل، بل يعرج كعادة القدماء على كل ما يجد الحديث عنه ضرورياً بالمناسبة)) (٢).
وأما الزبيدي فقد أحسن في التقسيم، ووضع لكل قضية عنواناً خاصاً بها، ومن ذلك وضعه باباً خاصاً للإعجاز البلاغي سماه (البيان عن إعجاز القرآن) (٣)، كما وضع عنواناً فرعياً لكل قضية يتحدث عنها (٤).

وأما الأصبهاني فقد خصّ الإعجاز البلاغي بفصل مستقل سماه (ذكر أخذ القرآن ورؤية النبي ﷺ بالقلوب حتى دخل كثير من العقلاء في الإسلام في أول الملاقاة) (٥)، ولم يضع الأصبهاني أي عنوان فرعي عندما تحدث عن قضايا الإعجاز. وقد أفصح الأصبهاني عن سبب التقسيم بقوله في مقدمة كتابه: ((وجعلنا ذلك فصلاً ذكرناها؛ لتسهيل على المتحفظ أنواعه وأقسامه، فيكون أجمع لفهمه، وأقرب من ذهنه، وأبعد من تحمّل الكلفة في طلبه)) (٦).

وأما الماوردي فقد عرض للإعجاز البلاغي في باب سماه (فيما تضمنه القرآن من أنواع إعجازه) (٧)، ثم أخذ يتحدث عن قضايا الإعجاز دون تسمية لها.

(١) الإعجاز البلاغي : دراسة تحليلية لتراث أهل العلم : ٢١٧ .

(٢) مقدمة محقق كتاب : تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبدالجبار : ز .

(٣) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٩ .

(٤) ينظر : المصدر السابق : ٢١ ، ٣٣ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٦ ، وغيرها .

(٥) ينظر : دلائل النبوة : ١ / ٢٢٩ .

(٦) ينظر : المصدر السابق : ١ / ٣٧ .

(٧) ينظر : أعلام النبوة : ١٢٥ .

وأما البيهقي فلم يضع عنواناً للإعجاز البلاغي، بل ذكره مع غيره من دلائل نبوة النبي ﷺ (١).

٢ - المواضع :

وهنا سأبين مواضع تناول علماء كتب دلائل النبوة لقضايا الإعجاز، هل كان تناولهم لها في أول الكتاب أو وسطه أو آخره؟ ومحاولة بيان السرّ في ذلك. هذا وقد اختلف العلماء في مكان تناولهم لهذه القضية اختلافاً كبيراً، فالجاحظ جعل حديثه عنها في آخر رسالته، ولعل هذا راجع إلى عدم ذكره كثيراً من الدلائل والمعجزات، فقد خصّ الإعجاز الغيبي والبلاغي بالذكر في هذه الرسالة دون غيرها، وجعلهما في آخرها، واستطرد استطراداً كثيراً في بداية الرسالة في كيفية مجيء أخبار معجزات النبي ﷺ، وغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنها خرجت مخرج التواتر (٢)، وبالتالي قد يكون هناك جزء كبير من رسالته لم يصل إلينا.

وأما ابن قتيبة فمن الصعب تحديد مكان حديثه عن الإعجاز البلاغي؛ وذلك لأن جزءاً كبيراً من مخطوطته قد فُقد، ولكني أحسب أنه لم يكن في بداية الكتاب؛ إذ الترقيم الموجود في المخطوطة يبدأ من الصفحة السابعة والعشرين بعد المائة.

وأما الباقلاني فقد تناول الإعجاز البلاغي في مقدمة كتابه، وجعله في الصفحات الأولى منه (٣)، وقد يكون هذا إيماناً منه بأهمية هذه القضية، كيف لا وكتابه يحمل كثيراً من القضايا والموضوعات المختلفة، كالحديث عن الكرامات والحيل والكهانة وغيرها، ومع كل هذا فقد قدّم الباقلاني الإعجاز البلاغي على بقية هذه القضايا.

وكذلك القاضي عبد الجبار فقد كان تناوله لقضية الإعجاز البلاغي في مقدمة كتابه، صحيحاً أنه لم يبدأ بها، لكن كتابه احتوى أكثر من ستمائة وستين صفحة، وكان

(١) ينظر : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١٠ .

(٢) ينظر : حجج النبوة : ٢٣٦ — ٢٦٦ .

(٣) ينظر : البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنانجات : ٢٣ — ٣٦ .

حديثه عن الإعجاز البلاغي في الصفحة الخامسة والثمانين وما بعدها، وبالتالي يُعد مكانها في أول الكتاب.

أما الزيدي فقد أخذ الإعجاز البلاغي جُلَّ كتابه، فابتدأ به الحديث، وجعله في أكثر من مائة صفحة، وبقية الدلائل في أربعين صفحة تقريباً. وما اهتمام الزيدي بهذه القضية إلا اعتقاداً منه بأهمية معجزة القرآن الكريم وأنه متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه.

وأما الأصبهاني والماوردي فقد جاء حديثهما عن الإعجاز البلاغي في منتصف كتابيهما؛ لأنهما قد ذكرا في البداية أموراً تتعلق ببداية العهد النبوي، كالحديث عن فضل النبي ﷺ، ومولده، وأسمائه، وتوقع الكهان وملوك الأرض بعثته (١)، ومعرفة الإله المعبود، وصحة التكليف، وإثبات النبوات وغيرها (٢).

أما البيهقي فقد كان حديثه في بداية كتابه، وهذا بلا شك راجع إلى أهمية معجزة القرآن، وأنها هي أكبر دليل على صدق نبوة محمد ﷺ.

٣ - الترتيب :

ليس في هذا القسم تداخل مع المبحث الثالث (الترتيب) من هذا الفصل؛ إذ المقصود بالترتيب هنا ترتيب موضوع قضايا الإعجاز بصفة عامة بين بقية موضوعات الكتاب مما لا يتصل أصلاً بقضايا الإعجاز، أما المبحث الثالث فهو يختص بالترتيب بين القضايا نفسها داخل الموضوع الواحد.

وبعد النظر في كتب دلائل النبوة وجدت أن العلماء قد انقسموا ثلاثة أقسام:

- منهم من جعل الإعجاز البلاغي أولى قضايا الكتاب، كالزيدي والبيهقي.
- ومنهم من بدأ بقضايا أخرى قبل الإعجاز البلاغي، لكن هذه القضايا ليس لها مكان إلا في مقدمة الكتاب، كالحديث عن فضل النبي ﷺ ومولده وغيرها، لكنهم عندما

(١) ينظر : دلائل النبوة : ١ / ٣٩ - ١٠٣ .

(٢) ينظر : أعلام النبوة : ٢٥ - ١١٨ .

شرعوا في بيان الدلائل والمعجزات جعلوا الإعجاز في مقدمة حديثهم، وهذا ظاهر عند ابن قتيبة، والباقلاني، والقاضي عبدالجبار، والأصبهاني، والماوردي. ولم يُفصح أيُّ من هؤلاء العلماء عن السبب الذي دعاه إلى تقديم إعجاز القرآن على بقية الدلائل والمعجزات غير الماوردي الذي قال قبل أن يدلُّف إلى معجزات النبي ﷺ: ((وأحقُّها بالسابقة والتقديم إعجاز القرآن؛ لأنه أصلُ شرِّعته، ومستودع رسالته)) (١)، ولا شك أن السبب الذي أفصح عنه الماوردي هو السبب نفسه الذي جعل بقية العلماء يُقدمون إعجاز القرآن على غيره من الدلائل.

— ومنهم من جعلها في آخر كتابه كالجاحظ، وقد بيَّنت وجهة نظري في سبب تأخيره فيما سبق من صفحات (٢).

وبالجمله يكون علماء كتب دلائل النبوة قد جعلوا هذه القضية محل اهتمامهم وعنايتهم، فقد جعلوها أولى معجزات نبينا محمد ﷺ.

٤ - الاتصال والانقطاع :

تجدر الإشارة إلى أن هذه المواضع التي تحدث فيها العلماء عن الإعجاز البلاغي كانت على صلة وثيقة بموضوع معجزة القرآن الكريم، وقد تعلقت فيه تعلقاً مباشراً، فلم يأت موضع منها في غير معجزة القرآن الكريم إلا ما ندر، فالجاحظ نراه يُشير في مقدمة رسالته إلى عجيب نظم القرآن، ثم عن التحدي والعجز، ليخرج بعد ذلك إلى موضوعات أخرى (٣) ثم يعود للحديث عن إعجاز القرآن (٤)، والحال كذلك عند القاضي عبدالجبار،

(١) أعلام النبوة : ١٢٣ — ١٢٤ .

(٢) ينظر : ص ٢٦٧ ، ٢٦٩ من هذا البحث .

(٣) ينظر : حجج النبوة : ٢٢٩ .

(٤) ينظر : المصدر السابق : ٢٧٣ — ٢٨٠ .

إذ يتحدث عن التحدي والإعجاز البلاغي (١)، ثم يتحدث عن دلائل أخرى ليرجع بعد ذلك لِيُفصّل القول في التحدي والمعارضة (٢).

وعند التأمل في هذه المواضع نجد أن علماء كتب دلائل النبوة اهتموا اهتماماً كبيراً بقضايا الإعجاز البلاغي، يظهر هذا من خلال وجود هذه القضايا وتفصيلاتها في المقدمة، ولا عجب في ذلك؛ فالقرآن ببلاغته وفصاحته من أوضح ما بهر العرب آنذاك.

(١) ينظر : تثبيت دلائل النبوة : ١ / ٨٥ — ٨٦ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ٢ / ٣٧٢ — ٤٠١ .

المبحث الثالث : الترتيب

أرى من المناسب أن أشير في بداية هذا المبحث إلى أن الترتيبَ في العرض والتأليف قضيةٌ منهجيةٌ بالدرجة الأولى، وهي تعتمد في الأساس على قدرة المؤلف وبراعته في إظهار كتابه بشكلٍ متلائم، تتسق فصوله ومباحثه وقضاياها اتساقاً يجعل المتلقي يتواءم معها، وينسجم في فكره وذهنه هذا العرض المتناسب، الأمر الذي يساعد على إيصال الفكرة أو القضية بصورةٍ سهلةٍ ميسرة.

وسألقي الضوء في هذا المبحث على فكرة ترتيب قضايا الإعجاز التي تناولها علماء دلائل النبوة في مؤلفاتهم، وكيف كان نهجهم في طريقة عرضها من ناحية تواليها ومجيء بعضها إثر بعض.

فأما الجاحظ فقد أشار بإيجاز في بداية حديثه عن قضايا الإعجاز إلى قضية التحدي، وقد جاءت هذه الإشارة في معرض حديثٍ عامٍ عن جمع القرآن، ثم أشار إلى التحدي مرة أخرى تحت فصل عقده لبيان سبب تأليفه حجج الرسول ﷺ. ثم نراه بعد ذلك يُعرج على قضية أخرى، وهي الإشارة إلى نظم القرآن الذي أعجز العرب ببلاغته وفصاحته، وختم هذه القضايا بفصل خاص يَسير عقده للمعارضة حينما أشار إلى أن الذي منعهم من معارضة القرآن علمهم بعجزهم عنها.

أما ابن قتيبة فقد افتتح حديثه في معجزة القرآن عن التحدي الذي جعلهم يصفون هذا القرآن بالسحر، ثم أشار بعد ذلك إلى قضية المعارضة؛ حيث إنه لما تحداهم حاولوا يائسين أن يعارضوه، فمالوا إلى السور القصار ((لوقوع الشبهة على الجهال فيما قلَّ عدد حروفه، ولأن المعجزة إنما تظهر في التأليف والاتصال، فإذا قل التأليف وقعت الشبهة)) (١)، ثم ساق ابن قتيبة شيئاً من سخافاتهم التي توهموا أنهم عارضوا بها القرآن الكريم، وختم

(١) أعلام رسول الله : ١٤٣ .

المؤلف هذه القضايا بالإشارة إلى روعة نظم الذكر الحكيم بعد أن ذكر طعنهم فيه ونسبتهم شيئاً منه إلى اللحن والتناقض وسوء النظم، وساق في بقية بحثه صوراً من جمال لفظه وبلاغة نظمه ومجازه، راداً بذلك على طعنهم السخيف.

ونرى الباقلاني يتناول القضايا نفسها التي تناولها سابقه ابن قتيبة، لكنه يزيد قضية وجوه إعجاز القرآن التي افتتح بها حديثه عن القضايا في (البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات)، وباختلاف يسير في الترتيب، فقد قدّم الباقلاني الإشارة إلى المعارضة ثم عقبها بالحديث عن التحدي الذي عقد له فصلاً خاصاً به، أما حديثه عن جمال النظم الكريم فلم يكن له موضع معين عند الباقلاني، بل كان مبعوثاً ضمن حديثه عن هذه القضايا، ولم يكد يخلو مقطع من حديثه إلا وفيه إشارة إلى بلاغة القرآن وروعة نظمه البديع.

أما القاضي عبد الجبار فقد اكتفى بذكر ثلاث قضايا لم يكن الترتيب بينها واضحاً في البداية، فقد تحدث عن قضية التحدي، وقضية وجوه إعجاز القرآن في سياق واحد، لكنه بعد ذلك قدّم الإشارة إلى وجوه إعجاز القرآن التي لم يقف عندها طويلاً، ثم رجع إلى التحدي في موضعين آخرين في نهاية الكتاب عقد لكل منهما باباً خاصاً بذلك، أفاض فيهما وأجاد، وقد جرّه التحدي إلى الحديث عن المعارضة المخفية.

أما الزيدي فقد كان ترتيبه للقضايا التي تناولها قريباً من الترتيب الذي سار عليه ابن قتيبة، إلا أنه قدّم لهذه القضايا بمقدمة جعلها حديثاً عن (البيان عن إعجاز القرآن) أشار فيها بإيجاز إلى نظم القرآن المعجز، ثم توالى عنده القضايا بالترتيب نفسه الذي رأيناه عند ابن قتيبة، فتحدث أولاً عن التحدي الذي عقد له فصلاً خاصاً أسماه (الكلام في أنّ التحدي قد وقع)، وأشار فيه إلى المواضع الستة الظاهرة التي تحدى بها القرآن العرب، كما أشار إلى المواضع التي يفهم منها التحدي.

ثم تحدث عن المعارضة في ثلاثة فصول أسمى الأول منها (الكلام في أنّ معارضة القرآن لم تقع)، ذكر فيه شيئاً من محاولات الكفار اليائسة لمعارضة القرآن، فأورد بعضاً

من كلامهم المسترذل الذي ظنوا أنهم عارضوا به القرآن، وأشار إلى أن هذا الكلام قسمان: ما ليس فيه من ألفاظ القرآن شيء، وما أُدخل فيه لفظة من القرآن فقدم بعضها وأخر، وزيد فيها ونقص منها.

أما الثاني فقد كان (الكلام في بيان أن الإعراض عن المعارضة إنما كان للتعذر)، والثالث (الكلام في بيان أن القرآن يجب أن يكون معجزاً إذا تعذرت معارضته)، وقد أورد خلال هذين الفصلين كثيراً من الشُّبه التي أُثيرت حول موضوع المعارضة، وأفاض في الرد عليها وتفنيدها.

ثم تحدث عن قضية ثالثة من قضايا الإعجاز وهي نظم القرآن وعُلوّه في الفصاحة والبلاغة، وقد عقد لذلك فصلين أحدهما كان (الكلام في بيان ماله كان معجزاً)، والآخر كان (الكلام في أن القرآن في أعلى طبقات الفصاحة) الذي أفاض فيه في عرض صور من بلاغة القرآن وجمال نظمه وعلو كعبه في الفصاحة، وهي صورٌ كنت قد أشرتُ إليها في غير موضع من هذا البحث (١).

وقد كان الزيدي في أثناء حديثه عن نظم القرآن وكشفه عن بعض أنواع الفصاحة التي تضمنها - كان قد تناول ضمن ذلك قضية التفاضل بين الآيات في البلاغة، وقد كانت إشارته إلى هذه القضية موجزة جاءت في أثناء حديثه عن جزالة اللفظ وعدوبته التي تكون بالتلاؤم وعدم التنافر.

والملاحظ هنا أن جميع هذه القضايا التي تناولها الزيدي: التحدي، والمعارضة، والنظم، والتفاضل بين الآيات في البلاغة، كلها قد جاءت عنده تحت وجه الإعجاز البلاغي والبياني للقرآن الكريم، وبعد أن أنهى الحديث في ذلك عقد فصلاً خاصاً للإعجاز الغيبي الذي اشتمل عليه القرآن، وقد جاء هذا الفصل تحت عنوان (الكلام في ذكر ما في القرآن من الإخبار عن الغيوب).

(١) ينظر: إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ٨٦ - ١٢٢، والفصل الثاني من هذه الرسالة: ١٧٤ - ٢٥٧.

ولا يتضح الترتيب عند الأصبهاني الذي لم يتناول غير قضية واحدة هي التحدي، أشار خلال حديثه عنها إلى الأثر النفسي الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب.

ويأتي الماوردي ليسلك ترتيباً جديداً في تناوله لهذه القضايا، فقد افتتح هذه القضايا بالحديث عن النظم البديع للقرآن الكريم، فعقد عدة فصول لبيان ذلك، وتحدث خلالها عن بعض ما تميز به القرآن حتى بلغ هذه المترلة في الفصاحة، فأشار إلى الإيجاز، وكثرة المعاني، وإعجاز نظمه، وجزالة ألفاظه، وشمولية معانيه، وأسلوب فصاحته، وخروجه عن طباع البشر، وإعجازه في سموه على فصيح الكلام نثره وشعره، وقد عقد لكل جانبٍ من هذه الجوانب فصلاً خاصاً.

ونجد الماوردي يشير خلال هذه الفصول إلى قضية التفاضل في كلام الله تعالى، وذلك في سياق حديثه عن الوجه الثاني من وجوه إعجازه حينما تحدث عن الإيجاز القرآني في فصلٍ خاصٍ عقده لذلك.

ثم أشار في السياق نفسه إلى قضية التحدي تحت فصل عقده لهذا الغرض أسماه (إعجازه في عجز الخلق عن الإتيان بمثله)، كما تضمن هذا الفصل حديثاً عن المعارضة ذكر خلالها بعض معارضاتهم السخيفة، ثم عاد إلى قضية التحدي مرة أخرى ليعقد لها فصلاً آخر بعنوان (استمرار الإعجاز في التحدي).

وقد كان الماوردي قد تناول جميع القضايا السابقة ضمن وجوه إعجاز القرآن، وقد عدّها منها في السياق نفسه إخباره عن القرون الخالية وإخباره عما سيكون.

ونأتي أخيراً إلى البيهقي الذي بدأ أولاً بإشارة موجزة إلى نظم القرآن البديع، ثم ذكر بعدها مباشرة قضية التحدي، التي دعت بعد ذلك إلى الإشارة إلى المعارضة.

وقد كان تناول البيهقي لهذه القضايا داخلاً ضمن وجه الإعجاز بالنظم كما فعل بعض العلماء قبله، ثم ذكر بعد هذه القضايا وجهين من وجوه الإعجاز، وهما: الإعجاز الغيبي، وما في القرآن من أخبار عن قصص الأولين.

وبعد هذا العرض لكيفية ترتيب هذه القضايا في تناول علماء كتب دلائل النبوة لها،
أستطيع هنا أن أسجل بعض الملحوظات التي لاحظتها على هذا العرض:

١- لم يكن لعلماء دلائل النبوة منهج واضح في ترتيب هذه القضايا، بل إنه لم يُصرح
أحد منهم بذلك، ولعلّ هذا يعود إلى أن الاهتمام بالترتيب والتنسيق بين أجزاء الكتاب لم
يكن بارزاً في تلك الفترة من التأليف، بل كان المؤلف غالباً يكتب في الموضوع دون
التفاتٍ إلى ترتيبٍ في العرض أو تنسيقٍ بين المواضيع.

وإن كنت أستثني من هؤلاء ابن قتيبة والزبيدي الذي أحسستُ أنّ في ترتيبهما لهذه
القضايا نسقاً عقلياً منطقياً، فكل قضية يتناولها أحدهما تفضي إلى التي بعدها مباشرة، ولا
غرو في هذا؛ فالزبيدي متأثر بابن قتيبة في بعض الأمور.

٢- لم ألاحظ أنّ هناك تشابهاً بين أحد من علماء النبوة مع آخر في ترتيبه لهذه
القضايا، عدا ابن قتيبة والزبيدي والباقلاني الذين أشرت أنفاً إلى التشابه في ترتيبهم،
والسبب في عدم التشابه أنّ القضايا التي يتناولها كل عالم ليست متحدة، فربما زادت عند
أحدهم ونقصت عند الآخر، ثم إن تناولهم لها في الغالب لم يكن على شكل عناوين
يضعونها بحيث يُفصل بين كل قضية والأخرى فصلاً واضحاً، بل كان حديثهم عنها ضمن
حديث عام شامل عن وجوه إعجاز القرآن الكثيرة، وطبعي أن يحوي مثل هذا الموضوع
قضايا الإعجاز الكثيرة دون استقلالية أحدها عن الأخرى.

٣- قضيتا التحدي والمعارضة غالباً ما تعقب إحداها الأخرى عند تناول علماء دلائل
النبوة لهما، ولا عجب في هذا؛ فالقضيتان بينهما اتصال وثيق، فالمولى عز وجل حينما
يتحدى العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن يحاول بعض المشركين تقبل هذا التحدي، ويهذي
بكلام سخيف معتقداً أنه يعارض القرآن.

٤- قضية نظم القرآن وإعجازه في البلاغة والفصاحة من أبرز القضايا التي تناولها
هؤلاء العلماء وأكثرها إشارة، ولم يكن لها في الغالب موضع معين لديهم، بل كانت
مبتوثة في تضاعيف حديثهم عن وجوه إعجاز القرآن بصفة عامة.